شفاء غليظة

قصة مصرية

بقلم : محمود تيمور بك

من عادتي أن أتفادى من الذهاب إلى المصرف ، في الأيام الأولى من الشهر . . . ولكن اتفق لي أن قصدت إلى « المصرف الوطني » في مطلع الشهر ، لأصرف صكاً بخمسة جنيهات ، هي ما بقي لي على أحد عملائي من أتعاب قضية . وكنت في جمع زاخر ، أدافع جهدي في سبيل الوصول إلى نافذة الصكوك ، وقد أخذ مني الضيق كل مأخذ . فلمحت وأنا مدهوش مغيظ ، فتاة تمرق إلى النافذة بين صفوفنا غير معنية بأحد . وانطلق لساني بلفظة احتجاج قابلتها الفتاة بإجابة تحدٍّ خشنة ، فازددت سخطاً ، ولكن لم يُجْدِ سخطي نفعاً .

وبينما كنت خارجاً من المصرف ، وقد قبضت قيمة الصك ، صدمني شخص صدمة أزعجتني ، فالتفتُّ فإذا بالفتاة عينها تسابقني نحو الباب ، فرمقتها بنظرة نكراء ، وهممت أن أصيح بها مهدِّداً متوعداً ، فعاجلتني بابتسامة رقيقة ، وهي تردِّد :

ألف معذرة ! ... لم أقصد البتَّة أن أسيء إليك ...

فنظرت إليها ولساني لا يزال ناقماً ثائراً ، فلم تدع لي فرصة التكلم ، بل واصلت قولها :

كنت قليلة الذوق معك مرَّتين .... ولكني أؤكد لك أني لم أفعل ذلك عن عمد ... إنهم يرهقوننا بانتظار مضجر مثير للأعصاب ، ولدينا أعمال لا تحتمل إضاعة الوقت !

كانت تتكلم وابتسامتها تزداد إشراقاً ولضارة ، فقلت لها وقد مرَّت على فمي بسمة طائرة :

هذا صحيح . . . ! انهم يرهقوننا بالانتظار ... ولكن لا تنسي يا آنسة أننا في اول الشهر .... فللمصرف عذره !

— أوافقك على أن للمصرف بعض العذر ، لا العذر كله ... على الرؤساء أن يدبِّروا الأمر ، وأن يبذلوا أقصى الجهد في سبيل إراحة العملاء . . . لقد أضاعوا عليَّ محاضرة كان لزاماً أن أستمع إليها في الجامعة !

— أطالبة أنت؟ — في كلية الآداب ... — حسن جداً ...

ورأيتني أسير وإياها في اتجاه واحد من الطريق ...

كانت سمراء ، على شيء من الملاحة ، ترتدي ثوباً متواضعاً لا يدلُّ مظهره على اليسر ، وإن احتفظ بظلٍّ من الأناقة والذوق السليم... لا يميزها من مثيلاتها ممن يعابثهنَّ عابر الطريق ويعاسيهنَّ إلاّ سمة خاصة : شفتاها ... أجل ، شفتاها ، بيت القصيد فيها ... كانتا شفتين غليظتين ، لا تراهما منطبقتين قط ، بل منفرجتين أبداً ، تسمحان لخطٍّ أبيض من الأسنان أن يكشف عن تألقه وتناسقه ... وإنك إذ تنظر إلى الشفة العليا منهما ، تلحظ على الفور كأنها تحاول دائماً أن تنأى بنفسها عن رفيقتها ، في إباء وترفّع ، ولقد تركّز هذا الترفع والاباء في نتوء يتوسطها . نتوء يماثل من وجوه شتى « حلمة الثدي » ، يجتذبك بتكوينه الفني ويرغمك على ان تدمن النظر اليه ...

وكنا قد قاربنا « شارع فؤاد الأول » عن كثب من مشرب « الامريكين » ، فسمعتها تقول : أتزمع ركوب الترام من هنا ؟

— بل أقصد إلى « الامريكين » لاحتساء قدح من الشاي ، قبل الذهاب إلى المحكمة ...

— اتفاق عجيب ... لي زميلة سترافقني الآن في المشرب ، كي ترافقني إلى الجامعة ...

— إذن طريقنا واحد ...

فقالت ، وقد خطرت على محياها ابتسامة وضاحة : يلوح لي ذلك !

وأردنا اجتياز الطريق ، فاعترضنا سيل من العربات والناس يزحم بعضهم بعضاً . فمددت لها يدي ، فأمسكت بها في رفق . وعبرنا « شارع فؤاد » من جانب الى جانب ، كالسفينة تشقُّ الموج في خضم صاخب....

وقالت لي ونحن نصعد الى الطبقة العليا من المشرب : أعلى موعد أنت في المحكمة؟

— مع أحد العملاء ... — أنت محام... ؟ — يلوح لي ذلك !

فأرسلتْ ضحكة خفيفة ، تمايلت على أثرها شفتها العليا في اختلاجة رشيقة ، على حين أخذ النتوء الذي يتوسط هذه الشفة يتقلص وينبسط في جاذبية أخاذة ...

وأخرجتُ محفظتي ، وتناولت منها بطاقة قدّمتها اليها قائلاً :

قد تحتاجين الى محامٍ... لا قدّر الله !

فتناولت البطاقة باسمة ، ونظرت فيها تقرأ اسمي ، وتقول :

تشرّفنا يا أستاذ... سمعت اسمك قبل اليوم... ما أسعدني بهذا التعارف !

— الشرف والإسعاد لي يا آنسة

وكنا قد بلغنا الطبقة العليا ، فدارت الفتاة بعينيها في المكان متفحصة ، ثم غمغمت : لم تحضر زميلتي بعد

ولم يكن في المكان إلا نفر قليل منتثر هنا وهنالك ... فقلت : وهل تنتظرينها ؟...

— يحسن بي ان أفعل ... — أيسوءك أن يكون انتظارك لها على مائدتي ؟

فابتسمت ، ولكن ما أسرع ان تزايلت ابتسامتها ، وهي تقول: أخشى عيون الفضوليين ..!

— وهل تلقين بالاً للمتطفلين ؟ — كلاّ ... ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أليس من النزق أن تجالس فتاةٌ رجلاً لم يمضِ على معرفتها به غير لحظات ؟ !

— هذا موضوع نستطيع ان نجعله مدار نقاشنا على مائدة الشاي ! ...

— ولكن يا سيدي ... — تكلمي ...

— إنها المرّة الأولى التي أجلس فيها الى رجل في منتدى عام ...

— حتى اذا كان من أقربائك ؟ — وهل أنت من أقربائي ؟

— هبي ذلك ! ... — لِمَ هذا التثبت ؟

— عامٍ يرغب في كسب قضيته ... — وهل تحوّلت المسألة قضية ؟

— قضية « صداقة » أرغب في توطيدها ! ...

— ماذا تقول زميلتي اذا رأتني معك ؟

— ألا ترين عيون الناس قد بدأت ترمقنا ؟ ! — هذا ما كنت أتوقعه ...

ودنونا من أقرب مائدة ، وجلسنا اليها . وسرعان ما أقبل علينا غلام المشرب ، فنظرت اليها ، وقلت : بمَ تأمرين ؟ — بقدح من الشاي ...

فقلت للغلام : قدحان ...

ومضى الغلام ، وأخذتْ الفتاة تطوف بنظرها صامتة فيما حولها ، وأنا أراعيها .. وسمعتها تهمهم : ما أسمجه ؟

ثم واجهتني بقولها : إنهُ لم يحوّل نظره عني لحظة منذ قدمنا ...

— مَنْ ! — هذا الوقح ... !

قالت ذلك وأشارت بعينيها الى رجل بدين له وجه كالرغيف المقبب المتوهج ، ووصلت جملتها السابقة بقولها : إنهُ من محتقي الأثرياء الذين يخالون الدنيا طوع يمينهم ..

— أتعرفينه ؟ — ومن أين لي أن أعرفه ؟

— كيف علمت إذن أنهُ من مُحتقي الأثرياء الذين ....

فقاطعتني في لهجة حازمة ، وقد زوت ما بين حاجبيها : إن وجههُ ينطق بذلك !

— أنت دقيقة الملاحظة ...

وأقبل غلام المشرب بالشاي ، فوضعهُ أمامنا ، فصببت لها قدحها وصببت لي قدحي ومضينا نجرع الشاي على مهل . وأخرجت علبة لفائفي ، وقلت : أتسمحين ؟

— دخّن كما تشاء ، ولا حرج عليك . . . — وأنت ؟

فحدجتني بنظرة عتاب ، قائلة : سيدي ! — لا تؤاخذيني ...

وتناولتْ لفافة ، وأخذت أدخنها لحظة في صمت . ومرّ أمامنا الرجل البدين ، ذو الوجه المقبّب ، يدرج في جهد ومشقة . فألقى علينا نظرة سامجة وتابع سيره . وسمعت الفتاة تغمغم : يا للوقح ! — حقًّا انهُ لَسمج

— أما لاحظتَ كيف كان ينظر إليّ ؟ لا أحتمل رؤية هذا الضرب من الناس ! .. إنهم يمثلون ... ذلك النفر البائد من أمراء الإقطاع ... لا تؤاخذني !

— على أيّ شيء أؤاخذك ؟ — قد يكون في حلتي على هذا الضرب من الرجال ...

— وهل تريني من هذا الضرب ؟

فضحكت في خفة ، وقالت : لا أقصد ذلك ، ولكن يجب أن أصرح لك بأني أمقت هؤلاء الأثرياء المتقاعدين ذوي رؤوس الأموال الذين يمتصون دم الشعب !

— كلامٌ وجيه ... — إذن أنت من أنصار الاشتراكية !

— وهل قلتُ ذلك ؟ — أتكون إذن من المعارضين لها ؟

— لم أقل ذلك أيضاً ! ... — أيّ مذهب اجتماعي تعتنقه إذن ؟

— لم ألق على نفسي هذا السؤال حتى الساعة !

— أنت مُتعِب ... ! — أشكر لك !

ونظر كلٌّ منا الى الآخر ، ثم استرسلنا في قهقهة عالية ، وجدتني أثناءها أرنو الى شفتيها الغليظتين ، وهما تلتطمان وتتدافعان ، وأرقب في شغف ذلك النتوء الجميل ، ووددتُ لو طالت ضحكتها وقتاً غير قصير ... وسمعتها تقول : أعترف بأنك غير صريح !

— قد يكون ذلك ... — أما أنا فعلى العكس صريحة جداً ...

— هذا حق .. إذ أعلنت لي في وضح النهار أنك تميلين الى النظام الاشتراكي !!

— ألستُ على صواب في هذا الميل ؟ ألا توافقني على أن التوزيع الاقتصاديّ في المجتمع الراهن غير عادل ؟ — أوافقك ...

— بلسانك فقط ؟ — بل بقلبي !

— إذن لقد استطعت أن أجتذبك الى صفي !

فقلت في لهجة هينة : أو كنت تظنين أنك غير قادرة على اجتذابي ؟

فأسبلت جفنيها وهي تقول في صوت ليّن المكاسر : يبدو لي أنك سهل الانقياد ، سريع التأثر !

فقلت لها ، وعيناي لا تفارقان شفتيها : لا كل الأحيان !

وكانت يدها على المائدة تعبث بملعقة الشاي ، فمددت يدي ، وأطبقت كفي على راحتها فاجتذبت يدها في غير عنف . وألقت بنظرة خاطفة على ساعة الحائط ، ثم نهضت وهي تقول :

لقد تأخرت زميلتي عن الموعد ، وقد أطلت في انتظاري إياها ... يجب أن أغادر المكان.

— أيكون قد بدر مني شيء ساءك؟! — أنا شاكرة على كل حال حسن ضيافتك ...

— آسف اذا كنت ... — لا يساورك شيء من ذلك ...

ومدت إليّ يدها ، وهي تبتسم ، وقالت : الى اللقاء يا سيدي ...

— الى اللقاء يا آنسة ..

واتجهت نحو السلم ، وانحدرت عليه مسرعة . وعدت الى مقعدي ، واسترحت أفكر فيما مرّ بي الساعة ، وكانت الشفاه الغليظة ذات النتوء اللطيف تتراءى لي في كل لحظة ... لا أدري كم مضى عليّ من الوقت وأنا في جلستي هذه . ولكن ظهور غلام المشرب أمامي أيقظني من حلمي . وعلمت أنه جاء ليقبض ثمن الشاي ، فدفعت يدي في جيب سترتي . ولشدّ ما كان عجبي إذ لم أجد حفظة نقودي في مكانها ، وأسرعت أبحث عنها في جيوبي الأخر وأمعن في البحث ، ولكن على غير طائل ... أين اختفت ؟ ومن أخذها ؟ ولمحت بخاطري صورة صاحبة الشفاه الغليظة ... أيمكن هذا ؟.. مستحيل ... مستحيل ... ولكن أين اختفت الحفظة ؟ .. وعدت أبحث ثانياً ... لم يسلبني إياها أحد في الشارع . إني على يقين من أنها كانت في جيبي حينما دخلت مع الفتاة في هذا المكان ... ونظرت الى غلام المشرب ، وقلت مردداً في حدة :

لقد أخرجت الحفظة أمامها .. أعطيتها بطاقتي ... هذا مؤكد !

فنظر إليّ في حيرة ، وقال مجمجماً : ولكن ... ثمن الشاي يا سيدي !

— أتظن أني محتال أيها الغبي ؟! — العفو ... العفو ... إنما ...

ودسست يدي على الفور في جيب صداري ، فألفيت معي ، لحسن الحظ ، من النقود الصغيرة ما يفي بما هو مطلوب ، فألقيته اليه ، وخرجت أعدو ، وأنا أكرّر : المحتالة الماكرة ... سأدركها ... وسأسلمها الى رجال الشرطة !...

وارتدتُ المنطقة حول « الاريكين » أتصفح السابلة ، وأتفقدها بينهم وقتاً غير قصير ... ولكن بلا جدوى !

وقصدت في النهاية الى مكان عملي وأنا محنق ثائر ! ...

***

وفي اليوم التالي ، بينما كنت في مكتبي ، أقلّب بعض المجلات الأوربية المصورة ، استوقفت نظري صفحة مكتوب في رأسها : « مسابقة الشفاه » تحوي مجموعة صور مختلفة لشفاه بعض الغانيات الأمريكيات من كواكب « السينما » . وقد وضعت جوائز لمن يكشف عن صواحب هاته الشفاه . ووقع بصري على فم غليظ ، منفرج الشفتين ، يتوسط العليا منهما نتوء ملحوظ . . . فغيبت أرنو اليه طويلاً . ولم ألبث أن انتزعت الصفحة من المجلة ، وقصصت منها الجانب الذي يشتمل على صورة ذلك الفم ... وقذفتُ بما بقي من الورقة في سلّة المهملات . وتناولت معجم « أبوت » الأريّ الغارق دائماً في سباته العميق على مكتبي ، وأودعت بين حناياه صحائفه تلك القصاصة ...

وكثيراً ما ألفيتني بعد ذلك — أثناء درسي لقضية من قضاياي — آخذ المعجم شارد الذهن ، وأمضي مجلاً أقلّب صحائفه ، وسرعان ما ألقي أمامي صورة « الشفاه الغليظة » تحدّق فيّ فأحدّق فيها . ومن ثمّ يفيض على نفسي إحساس بهيج يفضي بي إلى أحلام عذاب !

***

وترادفت الأيام ...

وكنت يوماً في « قسم البطالة » أجاذب « المأمور » الحديث في قضية من القضايا ، فتعالت بغتة أصوات خارج الحجرة . وفي لحظة اقتحم علينا المكان رجل جاوز سنّ الشباب ، يبدو من هيئته أنهُ من ذوي المعاش ، وهو يجذب فتاة من يدها ، وينعتها بأرذل النعوت ، راميّاً إياها بالسرقة والاحتيال ، على حين كانت الفتاة تتكرفي تعنت ومكابرة ، وتحاول أن تخلّص نفسها منهُ

وبرزت أمامي في الحال « الشفاه الغليظة » ذات النتوء الملحوظ !

وعرفتني على التوّ ، وسرعان ما وجدتها تتخاذل ، فأمسكتْ عن الكلام ، وقد طغى على محيّاها امتقاع !

وكان الرجل ما برح قابضاً على يدها يسوقها في عنف إلى مكتب « المأمور » ولسانهُ ينهمر كسيل من سبابهِ البذيء . فتقدمت منهُ ، وأخليت يدها من يده ، وقلت له :

تذكّر ياسيدي أنك في دار الشرطة ... شأن الفتاة الآن موكول إلى « المأمور » ... !

فنظر إليّ الرجل نظرة عاتبة ، وقال في تأتأة :

لقد سرقت حافظة نقودي حينما كنت في القهوة منذ أيام، وقد اختفت ، ولم أعثر عليها في ذلك الوقت . واليوم وجدتها اتفاقاً في الطريق ، فقبضت عليها بمعاونة رجال الشرطة ... يجب أن تعيد إليّ ما سرقته... إنها محتالة ...ماكرة... لصّة ! ...

فلم تعترض على كلام الفتاة ، بل ظلت ممسكة وهي تنظر أمامها نظراً ثابتاً . فقلت للرجل : كم أخذت منك ؟ — ثلاثمائة وخمسة وثلاثين قرشاً ... غير ثمن الحفظة !

قلتُ على « المأمور » وأسررت اليه : إني أعرف هذه الفتاة ، وأمرها يهمني ، فاذا قبلتَ ضماني ، وأطلقتَ سراحها ، كنتُ لك شاكراً ...

وألححتُ عليه ، وكان ممن يثقون بي ، فقبل ... فانتبذت على الفور بالرجل مكاناً قصياً ، ونقدته ما طلب . وخرجت آخذاً الفتاة من يدها .

وما كدنا نترك « القسم » حتى رأيتها تكركر في الضحك على حين بغتة . فنظرت اليها مغضن الجبين . وقلت : حقاً إنهُ موقف يثير الضحك !

فنظرت إليّ بمؤخر عينيها ، وقالت : أتريدني أن أبكي ؟!

— كان الأجدر بك على الاقلّ أن تصمتي ! . — ولِمَ ؟

ألا تشعرين الخجل ؟ — أتبغي أن تلقي عليّ محاضرة في علم الاخلاق ؟ !

— وهل تجدي معك هذه المحاضرة !

فأطلقت قهقهة ، وقالت : ليس لديّ من الوقت مايسمح لي بسماع أمثال هذه المحاضرات .. !

فضغطت يدها في عنف . وقلت : كُفّي عن هذرك ... وإلا ...

فصوّبت اليّ نظرة حادة وقالت : وإلاّ ماذا؟ — أتظنين أنني غير قادر على تأديبك ؟

— ومَنْ تكون أنت ، حتى تبيح لنفسك هذه السلطة ؟!

— أبيحها لنفسي ، بمحض إرادتي !

فتضاحكت معابثة ، وقالت : ولكنني لا أُبيحها لك !

فازددت في ضغط يدها ، وقلت : كُفّي عن هذا الهذر ... لن تجدي من ورائهِ إلاّ أسوأ العواقب ...

فصاحت ، وهي تشدّ يدها : ليس لك شأن بي ... أترك يدي ... أسامع !

فلم أعنَ باحتجاجها ، بل تماديت في ضغط يدها ، فضعف صوتها واختلج ، والتمعت عيناها ببريق الدموع وسمعتها تغمغم : رجل قاسٍ بلا قلب !

وانطبعت على شفتيها مظاهر الذلّ والانكسار ، فأكسبتهما منظراً خلاباً ... ووجدتني

أخفف الضغط عن يدها ، وواصلتْ كلامها قائلة : ماذا تريد مني ؟ ... قلْ !... ماذا تريد ؟
فأجبت : أريد أن أقوّم من اعوجاجك ، وأن أصلح من نفسك !
— ولِمَ كل هذا يا حضرة ؟
قلت متباطئاً ، وعيناي لا تفارقان شفتيها : إنهُ عمل من أعمال الخير ، أُقدمه الى الانسانية !
— الانسانية ؟ وهل تعنيك الانسانية الى هذا القدر ؟ — يلوح لي ذلك ...!
— عجيب أمرك ! ولكن أتعلم كم أضعتَ من مال حتى الساعة في سبيل هذه الانسانية ؟
— أعلم ! — وقد تفقد أكثر من ذلك في المستقبل !
— محتمل هذا ... — حبًا في الانسانية ؟ !
— أرغب في الأخذ بناصر مخلوق تعس ، وانتشاله من هاوية تردّى فيها ...
فلبثتْ فيّ وقتاً صامتة ، ثم قالت : أتظنُّ أنني لصّة ؟
فابتسمت قائلاً : معاذ الله !
— ظنّ ما تظنُّ ... لماذا تتمتعون أنتم بالمال ، وفقيرة مثلي لا تلقى ما يقوم بأودها ؟
— عدنا الى الاشتراكية ...
— أنا لم أسرق ... إني أنال حقًا مشروعًا ... إني أعيد الى طبقتنا المهيضة الجناح بعض ما سلبتموها من رزق !
ومضت في حديثها مهاجة بالغة السطوة ، وكنا نسير جنباً الى جنب في خطىً وئيدة فتركتها تفرغ ما في جعبتها ، حتى اذا بلغتْ النهاية ، قلت لها : إنكِ لقوية الحجة !
— أتهزأ بي ؟ — كلا ....
— ما زلت تحسبني لصة ؟ — لا أريد أن أحسبك كذلك ! — لا تريد ؟ !...
ووقفت قبالتي متفحصة ، ثم أردفت قائلة : ولماذا لا تريد ؟ — هكذا ...
— ولكنني أؤكد لك أني لستُ لصة إني لم أقدم على ما أقدمت عليه إلاّ لأسباب قاهرة !
وأمسكت برهة ، ثم استأنفت حديثها : أسباب مشروعة طبعاً ! ...
— هذا محتمل ...
— لي أبٌ مصابٌ بمرض لا يرجى شفاؤه ، وأربعة من الاخوة والأخوات ، كلهم أطفال وأنا وحدي أعولهم ... إن عملي المضني في حياكة الاثواب لا يدرُّ عليّ إلاّ النزر الذي لا يغني !
— ومن أجل هذا ، أرغب في اصلاح أمرك ! — ألديك عمل أستطيع ان أقوم به ؟
— آمل ان أجد هذا العمل ... — ما نوعه ؟

— لا استطيع ان أحدده لك الآن ، انما أعدك بأن أبذل ما في وسعي ، لأهيء لك عملاً نافعاً …

فانطلقت تقلب في وجهي عينيها المتسائلتين، ثم قالت مرهمهمة : أتثق بي ؟

— أرغب في ذلك !

فابتسمت ، وقالت : سأزورك في المكتب …

— إني منتظرك … هاك عنواني …

ودسست يدي في جيبي ، لأخرج المحفظة ، ولكنها بادرتني بقولها ، والابتسامة مازالت تموج على محياها : إني محتفظة ببطاقتك التي أعطيتنيها في « الامريكين » …

— حقًّا ؟!

فقالت في صوت خافت ناعم النبرات ، وهي تعبث بأصابعها :

إنها بطاقة ثمينة … لا أفرط فيها … أتريد أن تراها ؟

— إني أصدقك …

— شكراً لك … والآن يجب أن أمضي الى البيت … آسفة إذ سببت لك متاعب كنت في غنى عنها … كل ما فقدته من مال لأجلي سأعيده اليك حتماً … كن على ثقة بأنني لست من الخبث وسوء الطوية بالدرجة التي يتوهمها الناس فيّ … ستجد على الأيام مصداق ذلك !

— ما أشد رغبتي في تحقيق هذا …

— سأزورك غداً في المكتب … إذا لم تجد لديك من ذلك مانعاً …

— في أي وقت ؟ — قبيل الظهر … — ما أنتظرك …

ومدّت إليّ يدها ، فاحتوت كفّي راحتها . ومكثت قبالتها وقتاً صامتاً أعلى مفاتنها ، والغبطة تشيع في نفسي ، ثم همست : أتقبلين أن نتناول الغداء معاً ؟

— كما تريد … — أشكر لك …

— الى الملتقى … — أنا في انتظارك …

وتركتني وهي تبتسم في عذوبة

وطاب لي أن أعود الى منزلي مترجلاً ، وسرت في خطوات هينة . وكنت أثناء الطريق أدخن اللفائف واحدة إثر أخرى ، وأنا هيمان أفكر فيما مرّ بي الساعة مع ذات الشفاه … وساءلت نفسي مرّات : هل كنت مصيباً في موقفي منها ؟ ألم يكن الاجدر بي أن أتركها في « القسم » بين يدي الشرطة ، وأن أعزّز التهمة ضدّها عقاباً لها وردعاً لمثيلاتها … وهنا طفقت أناقش نفسي في فلسفة العقوبة ، وما هي أقوم السبل الى إصلاح المجرم على ضوء

المباحث النفسية الجديدة ، وهداية مبادىء الانسانية الرحيمة . وانتهيت من هذا النقاش الى نتيجة اطمأنت اليها ، وهي أن صنيعي مع هذه الفتاة البائسة خير ما يفعله امرؤ كبير القلب ، إنسانيُّ النزع . وانني جديرٌ بأن ألتزم هذا المبدأ في حياتي أبداً ...

دخلت منزلي ، وتناولت عشاءً خفيفاً ، ثم قصدت الى مكتبي لأدرس بعض القضايا . فلم أجد ميلاً الى العمل ، بل أحسست تراخياً ورغبة في التمدد على المقعد الفسيح ، ففعلت ... وامتدت يدي الى معجم « أبوت » وأخرجت صورة « الشفاه الغليظة » ومضيت أتأملها مليًّا ... إن لها أبًا مصاباً بمرض لا يرجى له شفاء ، وإخوةً وأخوات أطفالاً ... انها لتقضي الليل مكبّة على الحائكة ... وماذا تربح من هذه الحائكة ؟ كثيراً ما تدفع الفاقة بالمرء الى مهاوي الجريمة . ومن ثمَّ يهبُّ القانون مطالباً بالعقاب ... حقًّا إن في الأوضاع الاجتماعية مظالم فادحة يجب القضاء عليها ...

وفي صباح اليوم التالي ، نهضت من فراشي ، وقد اعتزمت أن أتخلف عن المحكمة ... ألا يحقُّ لي أن أمنح نفسي إجازة يوم واحد ؟ أيحتمُّ عليَّ أن استقبل كل نهار تلك الوجوه السمجة ؟ وأن أتلقى هذه الابتسامات السخيفة التي تحمل طابع الرياء ؟ ..

وطلبت زميلي في « التليفون » وأفهمته اني منحرف المزاج ، فعليه أن يحلَّ محلي في المحكمة . وأوصيت الطاهي أن يهيء لي غداءً طيباً ، وخرجت الى السوق ، فأتيت بألوان ممتازة من المشهيات والحلوى ...

مكثت انتظر قدومها ...

وطال انتظاري ، فقلقت ، وساورني ظنون شتى ... أيكون أبوها قد استبقاها لتمرّضه برهة أم أخطأت تقدير الوقت ؟ أم انها قد تكون ...

كلاَّ ... انها لقادمة ... قادمة حتماً !

وطال انتظاري أيضاً

وألحَّ الطاهي في سؤاله : متى يؤذن له بتقديم الطعام ؟

وحلت الساعة الثالثة ، ولم يظهر لذاة الشفاه الغليظة أثر ...

وأطلَّ الطاهي من فرجة الباب ، ولم يكد يفتح فاه متسائلاً ، حتى قذفته بمعجم « ابوت » الضخم ، فولى الأدبار هارباً ...

***

وتعاقبت الأيام ..

وبينما كنت في مكتبي وقت الأصيل مع بعض عملائي ، منصرفين الى درس قضية مهمة ،

إذ دقّ « التليفون » وكان المتكلم : « مأمور قسم البغالة » فأخبرني بأن الفتاة التي ضمنتها ضبطت متلبسة بالسرقة ، فهمت أن أصيح به ان احبسوها ، فقد تعمّت بدي عنها ، ولكن وجدتني على الفور ألحّ عليه في ان يبعث اليّ بها على عجل ، وعليّ إصلاح الأمر .. فلم يقبل، فرجوته مستعطفاً ان يفعل ، فهي فتاة مريضة ، في طبعها شذوذ ، يعالجها طبيب في الأمراض النفسية . وانها من أسرة كريمة ، ولأبيها مكانة ملحوظة في الهيئة الاجتماعية ، فمن واجبنا ان نصونه عما يشينه ... وأطلتُ في حديثي، فأكدت له اننا سنبالغ في رقابتها ، ومنع اتصالها بالناس ، وأفضت له في ذلك حتى قبل ...

والتفت الى زملائي معتذراً عن مواصلة العمل ، فانصرفوا مرغمين متذمرين . وانطلقت أجول في الغرفة بخطى مضطربة ، وأنا أجمجم : سترى ! ... سترى ! ...

ولكنني لم أكن أعلم ما أفعل معها. كان رأسي مشحوناً بمختلف الصور المختلطة المتشابكة، لا أستطيع أن أتبيّنها أو أميز بينها . وعجبت من أمري: كيف رضيت أن أصوغ « للمأمور » هذه الأكاذيب العجيبة ، وكيف أسعفتني بديهتي على اختراعها بمثل هذا اليسر ؟!

وظللت على حالي تلك ، حتى قرع الباب، فوثبت اليه أفتحهُ ورأيتها أمامي خلفها شرطيّ وسرعان ما صرفته وجذبتها من ذراعها . وسمعتها تقول : لماذا أتوا بي هنا ؟

فرميتها بنظرة محدّدة وقلت : يا لك من سيئة الطبع خبيثة !

— أراك ثائراً لأنني لم أزرك كما وعدتك ... — أو تظنين أنني صدقتك ؟

— صدقتني ، وانتظرت مقدمي بفارغ صبر ...

— أنا انتظرتك ؟ أنا ؟ ... هل بلغت بي الغباوة أن أهتمّ بشخص حقير مثلك ؟!

— أجل ، أنت مهتم بهذا الشخص الحقير ، مهتمّ به أشدّ الاهتمام ...

— إخرسي ... — ولقد تعمدتُ ألاّ أحضر ، لأدفعك الى انتظاري ...

— يا للوقحة !

— أما سبب اهتمامك بي ، فأمرٌ لا يخفى عليك .. انك تهواني ... أجل ، تهواني !

فصحت ،وقد أقبلت عليها متضرراً : أنا أهواك ؟ أنا ؟ ... وهل فيك شيٌّ لا يُستحبّ؟ ...

— أنت مدلّه بي ... ولكني لن أنيلك مُناك ... حتى القبلة الصغيرة سأمنعها عنك !

— أنت أعجز من أن تمنعي عني شيئاً . ولكنني زاهدٌ فيك لحقارتك ... ما أشدّ افتقارك الى ما يجتذب الرجل !

— انك تذوب شوقاً الى لثم شفاهي ...

— شفاهك ؟ ... هاها ... ! شفاهك الغليظة المتورمة المدلاة كشفاه أقبح الزنوج ...

— لن أنيلك شرف لثمها أبداً .. ستظلُّ محروماً إياها مهما يستعر لهيب غرامك ، وتتأجج نار شوقك !!

— غرامي ؟ ... شوقي؟ .. سأريك كيف أنا مغرمٌ بك ، مشوق اليك .. سأريك !.

واختطفت خيزرانة ، كانت ملقاة على أحد المقاعد ، وأمسكت « ذات الشفاه » وانهلت عليها ضرباً ، ورأيتها تحاول المقاومة بادىء بدء ، ولكنها وجدت مني مؤدباً عنيفاً عنيداً صعب المراس ، فاكتفت بأن تحمي جسمها من لسع العصا المرنة ما استطاعت الى ذلك سبيلاً .. ثم انطلقت تستعطفني وتسترحمني ، فلم أستجب لها ، بل ظللت جاداً في الضرب في مهارة وتفنن ، حتى أدركني التعب ، فتركتها ... وجلست على الشكل أمسح وجهي وأغمغم :

لعلك بعد هذا تقلعين عن غيِّك ، وتثوبين الى رشدك ...

وألفيتها تزحف الى ركن من اركان الغرفة ، تجمعت فيه وراحت تنشج

وقت الى مكتبي ، ومضيت أعبث بأقلامي صامتاً ، وأنا انظر اليها من طرف خفيّ ...

ثم قلت كأني أحدث نفسي : ستشكرين لي هذا الصنيع .. إنهُ درسٌ نافع لك في الحياة !

فلم تجبني ، بل جعلت تنشج نشيج طفل ذليل مبتئس !

ولبثنا وقتاً على هذا الحال هي في ركنها تولول ، وأنا جالس الى مكتبي أعبث بأقلامي ، وأخالسها النظر الفينة بعد الفينة ...

وهممت أخيراً أن أذهب اليها لاترضاها فوجدتها ترفع رأسها ، وتهمهم بهذه الكلمات :

لم أكن أستحقُّ منك أن تعاملني بهذه القساوة ... — بل تستحقين ...

ومضت تمسح وجهها ، وتنسق ما تشعث من شعرها ، وهي تقول :

لو علمت اية عاطفة طيبة أكنها لك ، لما فعلت معي ما فعلت !

فتضاحكت قائلاً : أية عاطفة ؟

— لا تزد من ألمي ، بهذه السخرية !

ونهضت تقصد مكاني ، قائلة :

أقسم لك اني كنت معتزمة زيارتك ، وفق الموعد الذي ضربناه ...

— أتعودين الى منزلي ؟

— أقسم لك اني صادقة في قولي هذا ! لقد كنت حاضرة اليك لولا وفاة أحد أقاربي

ودنت مني ، وهي تتكلم حسيرة البصر : أأكون منكرة لجميلك الى هذا الحد ؟!

ودنت مني ايضاً ، وهي تقول : ألم تشعر باني أميل اليك... ؟

فصحت : تميلين اليّ ؟ انت ؟!

وانكبت على ركبتي تحتضنهما ، وهي تقول : أحبك ! أحبك ! ...

— وإذا كان هذا مبلغ شعورك نحوي ، فماذا كنت تعاندين وتكابرين ؟

فرفعت رأسها اليّ ، وعبرتها شرقة بالدموع ، وقالت : من فرط حبي لك .

ونهضت ، فطوّقت عنقي بذراعيها ، ثم أدنت وجهها من وجهي ، وهمست قائلةً :

— دونك شفاهي ... هي لك ! وغبنا معاً في عناق حار ، وقبلات مستعرة ...

***

وأجلستها بجانبي على المتكإ ، وبدأتها بين يديّ ، على حين كانت عيناي لا تروبان من النظر الى شفتيها ، وقالت لي : لن أفارقك ! ... لن أفارقك أبداً ... ! — كيف ؟

— ألا ترضى ان أقيم معك ؟ — وأسرتك ؟

— لا يستطيع أحد في العالم أن يحول بيني وبينك

وعقدت ما بين حاجبيها ، وقالت في صرامة : سأقرر مصيري بنفسي . أنا حرة في تصرفي . لا سلطان لأحد عليّ !

وسمعنا في هذه اللحظة دقّاً بالباب ، فألفيتها تفزع الى رقبتي تتعلق بها ... وهي تهمس في نبرات مختلجة : لا تفتح ... لا تفتح ... لا أريد أن أعود اليه !

وسمعت صوت الطاهي يسألني عن طعام المساء ، فطلبت اليه ان يرجع بعد فترة ... ثم التفتُّ اليها ، وقلت : ممن تخافين ؟

فتحركت شفتاها ، دون ان تنطق بحرف وعدتُ أقول : فيم الفزع ؟ ... ممن تخافين ؟

فقالت ، والحيرة تجول في مآقيها : أأستطيع ان أعوّل عليك ؟ — كل التعويل ...

— أقادرٌ أنت على أن تدفع عني كلّ أذى ؟ أقادرٌ أنت على حمايتي ؟ حمايتي منهُ ... ؟ !

— مَنْ هو ؟ ... من ؟ — هو ... هو ... — أبوك ؟ — ليس لي أب .

— إذن مَنْ يكون ؟ فأخفت وجهها في صدري ، وطفقت تنشج قائلة :

لقد كذبتك ... كلُّ ما أخبرتك به محض اختلاق ... اغفر لي !

— أوضحي كل شيء ... تكلمي ...

فرفعت عينيها إليّ ، وقالت : لا تحقد عليّ ... اني فتاة بائسة .. لا نصير لي في الدنيا سواك .. ألم تقل انك راغبٌ في إصلاح أمري ؟

— عوّلي عليّ واكشفي لي عن متاعبك وهمومك ! — اذن لن يستطيع أن ينالني بسوء !

— منْ هو ؟ — هو الذي يأمرني فأطيع ... هو الذي يلقنني كلّ كلمة أتفوّه بها . ويرسم لي كل طريق أسلكه ... هو الذي يفرض عليّ إتاوات يجب أن أؤدّيها اليه كل يوم ... هو أصل بلائي ! — من هو ؟

— هو شيطانٌ لقيني في طريق الحياة ، فحوّلني من فتاة طيبة القلب ، طاهرة الذيل ، أدرس في معاهد التعليم بنشاط ، الى حيث ترى . . أهوي الى الدرك الاسفل !

— ولماذا لا تتركينه ؟

— لا أدري ! . . . لا أدري لماذا لا أستطيع تركه ؟ . . ولكنني أؤكد لك ان كل شيء انتهى الآن . . . سأستأنف معك عهداً جديداً . . اني اضع حياتي كلها بين يديك ؛ فأقِلني من عثرتي ، وانتشلني مما انا فيه .

— لا تخشي احداً ، ما دمت معي ! كوني على ثقةٍ بأني سأكون لكِ نعم الهادي ونعم النصير . . .

ووجدتها ترخ رأسها ثانية على صدري ، وترخي اجفانها ، وقد شاعت في وجهها طمأنينة وهدوء . . وغمرنا الصمت والسكون . . . وأخذ ضوء النهار يشحب . . .

وطال صمتها ، وهي مسبلة الاجفان . وكان صدرها يعلو ويهبط في حركة منتظمة ، فأحطتها بذراعي في رفق ، ومانفكت أتطلع اليها ، مجتلياً سحرها الخلاّب . . .

يا لله ! . . . لم أرَها على هذه الفتنة من قبل . . . .

***

استيقظت والصبح قد بدأ يتنفس ، ودرت بعينيَّ أتفقد « ذات الشفاه » . . . فلم أجدها ، فناديتها ، فلم يجبني أحد . . فانطلقت أبحث عنها في الدار ، فلم أعثر لها على أثر . فقصدت الى حجرة مكتبي حيران مضطرباً ، فوقع بصري على درج المكتب مفتوحاً . وألفيت حلقة المفاتيح معلقة بقفله ، فأخذ مني العجب كل مأخذ ، ان حلقة المفاتيح لا تبرح جيبي ! وهرعت الى الدرج ، أبحث فيه ، فلم أجد محفظة نقودي ! . . .

ووقفت مبهوتاً ، وقد انتفخت أوداجي . . .

وعدتُ الى بحثي في دقة وتحرٍّ ، منادياً «ذات الشفاه» . . . ولكن كل ذلك كان بلا جدوى!

واندفعت الى «التليفون» أطلب «قسم البغالة» وما كاد يجيبني حتى أعدت السماعة مكانها في عنف ، وأنا أردد : غلط ! . . . غلط ! . . .

وجعلت أقطع الحجرة ذهاباً وجيئة ، وبغتة وقع نظري على معجم « ابوت » ملقى على الارض في إهمال ، متجمعاً بعضه على بعض ، كشيخ طحنته السنون . وأبصرت بقصاصة الورق تطلُّ من بين صحائفه ، فانحنيت أجتذبها . وما إن طالعتني صورة « الشفاه الغليظة » حتى انهلت عليها دعكاً ، وقذفت بها في عرض الحجرة ، وانثنيت على المعجم ، فوقع في وهمي انهُ يرمقني في خبث وتهكم ، فركلتهُ ركلةً شتّتت من أوراقه ، وبعثرت من فصوله . . . !